مركز جمعة الماجد
للثقافة والتراث - دبي

آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية ثقافية تراثية

تصدر عن قسم الدراسات والنشر والشؤون الثقافية بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

السنة الخامسة عشرة : العدد الثامن والخمسون - جمادى الآخرة ١٤٢٨ هـ - يوليو (تموز) ٢٠٠٧ م

الورقة الأولى من مخطوط «اتحاف ذوي الفطن بمختصر أنباء الزمن» للقاضي عبد الملك بن حسين الأنسي (ت ١٣١٥هـ).

First page from manuscript AEt'haf Thawi Al Fetan Bi Mokhtasar Anba Al Zaman" To Al Qadi Abd Al Malik Bin Hussain Al Ansi, dead in 1315 A.H.

الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية

د. جمال شوالب
جامعة الأمير عبدالقادر - قسنطينة - الجزائر

إذا كان الحديث عن الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية هو حديث عن مجموعة من الكتاب سموا "بجيل ١٩٥٢". فإنه من الضرورة بمكان، أن نتكلم عن أسباب إرساء هذا الأدب الشاب، في ذلك الوقت، والجديد بالنسبة للحياة الأدبية في شمال إفريقيا بصفة عامة.

ولعلنا ندرك أشد الإدراك أهمية ربط أسباب ظهور ونشأة هذا الأدب الجزائري الشاب بالأحداث الأدبية التي كانت سائدة في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي، والتي كانت قد أحكمت قبضتها بوساطة مجموعة من الأدباء الفرنسيين الذين نشأوا في أرض الجزائر، وترعرعوا فيها، أو أتوا إليها من البلد الأم فرنسا، من أمثال إيمانويل روبلاس (Emmanuel Robles)، وروني جون كلو (Clot Rene Jean)، وكلود فريمانفيل (De Freminville Claude)، ومارسال موسي (Marcel Moussy)، وجون بليغري (Jean Pelegri)، وجول روا (Jules Roy)، وقد أنشأوا - بعد الحرب العالمية الثانية - ما يسمى بمدرسة الجزائر (L'Ecole d'Alger)[1]، التي كانت تنشر في صفحاتها القيم الإنسانية، وتدافع عنها بكل شراسة، وفي المقابل، كانت تحارب القيم العنصرية، وكل ما له صلة بالتفرقة واللاإنسانية، كما كانت تدعو أيضا إلى الوحدة بين الشعبين الجزائري والفرنسي.

وقبل الخمسينيات بقليل، ونظرًا للنجاح الباهر الذي حققته هذه المدرسة في نشر الأدب عبر صفحات مجلاتها، أُعجب بها مجموعة من الأدباء الجزائريين، وهرعوا إليها راغبين في نشر ما يجول في خاطرهم من مشاعر، وأحاسيس، وعواطف جياشة تلطخت بالجوع والألم والفقر.

فوجدوا في صدر هذه المدرسة الرحب ما كان يشفي غليلهم. ويطفئ نار حرقتهم. فيا له من ترحيب! وأي ترحيب! بل مفاجأة أو قُل هبة نزلت من السماء. فطفقوا يكتبون باللغة الفرنسية، لغة المحتل. نظرا لما كانت تقوم به السلطات المحتلة من محوٍ وطمس للهوية عن طريق التضييق على مجالات استعمال اللغة العربية، إلى درجة منعها من المؤسسات العامة. بالإضافة إلى كون المجتمع الجزائري، آنذاك، يعيش درجة عالية من الأمية، حيث بلغت نسبتها حوالي ٨٥٪ حسب ما جاء في دراسة للباحث مصطفى الأشرف[٢] إذاً، عبر هذا المحور - أي محور اللغة - يكون الكاتب الجزائري بصفة عامة، قد مرّ بمجموعة من المراحل المتعمدة والمدروسة من قبل نظام الاحتلال لغاية في نفسه، ومن هذه المراحل نذكر:

١- مرحلة تعلم اللغة الفرنسية.

٢- مرحلة المثاقفة السلبية: لأنّ الكاتب الجزائري هنا يأخذ فقط ولا يعطي في أول الأمر، بمعنى أنه مضطر للعيش في عالم جديد تحكمه ضوابط خاصة تخدم المحتل، وتضرّ بصاحب الأرض.

إن هذا الاكتشاف للعالم الجديد بثقافته الأجنبية، وقيمه الحضارية الغربية، جعلت الكاتب الجزائري مبهورًا، وفتحت له الباب واسعًا للدخول فيه، والتغذي ببعض توابله.

٣- مرحلة الاندماج في الآخر: حيث نجحت فرنسا في احتضان الكتاب الجزائريين ذوي الثقافة الفرنسية - للأسباب المذكورة آنفًا- فأصبحوا عناصر مميزة في المجتمع بحكم تقربهم إلى المحتل، وصاروا بذلك يقلدونه في المأكل والمشرب والملبس وكيفية التفكير، أو كما قال العلامة ابن خلدون في مقدمته: بأن المغلوب محكوم بتقليد الغالب في جميع صفاته وحركاته.

٤- مرحلة الوعي والتقييم:

على الرغم من أنّ الكاتب الجزائري قد عاش هذه الامتيازات مجتمعة تحت مظلة المحتل، لكنه في المقابل، وجدها امتيازات مسمومة ومحفوفة بالمخاطر، تضر صاحبها أكثر مما تنفعه، ولاحظ أنه لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن أبناء مجتمعه الأصليين.

الآن، وقد اكتسب بكل قوة واعتزاز سلاح التخاطب المتمثل في اللغة، وهو سلاح ذو حدين:

- حد للأدب والجمال.

- حد للدفاع عن الهوية الجماعية.

فإنه يستطيع الوقوف الند للند في وجه الاحتلال، على الرغم من التمزق الذي صار يعيشه من الجانبين النفسي واللغوي، أضف إلى ذلك سياسة فرنسا العنصرية تجاه الشعب الجزائري (فرّق تسد)، وكذلك مختلف الوقائع الدامية التي حدثت وسجلها الشعب الجزائري في ذاكرته الجماعية بأحرف من دم، وخاصة منها ما وقع بتاريخ ٨ مايو ١٩٤٥م.

إنّ هذه الأحداث المختلفة في تاريخ الجزائر دفعت بالكاتب الجزائري إلى طرح سؤال واحد في غاية الأهمية، في ذلك الوقت، ألا وهو: " من أنا"؟

لذلك، فإنّ ساعة الحسم قد حانت، وبالتالي أُعطيت الأولوية للاختيار، فاختار الكاتب الجزائري وطنه الأم، وأصبح من أبرز المدافعين عنه، رافضًا الاحتلال الفرنسي، ومناديًا بالشخصية الجزائرية والهوية الوطنية.

وفي هذا الإطار العام، نلاحظ أن الولادة الحقيقية للأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية جاءت بعد الحرب العالمية الثانية، وفي

حدود سنة ١٩٤٥ ذاع صيتها على مستوى واسع وبخاصة في فرنسا البلد المحتل. لأسباب موضوعية سنتطرق إلى ذكرها وشرحها في ثنايا هذه الدراسة.

من هذه الكتابات الأدبية الأولى بدأت ترتسم خارطة الطريق. حيث أراد أصحابها أن تكون كتابات اثنوغرافية (Litterature ethnographique) تبحث في الأصول والجذور. و موجهة بالخصوص إلى قارئ واحد معروف وبيّن. وهو القارئ الفرنسي أو الأوروبي بصفة عامة.

غير أنّ الحال لم يبق على حاله. فقد تغيرت الأوضاع وبخاصة السياسية منها. مما أدّى إلى تغيير مجرى الكتابة الأدبية لدى الكتاب الجزائريين. وقد حركت هذه الأحداث السياسية في نفوسهم الأحاسيس والمشاعر التي كانت كامنة ومطموسة في أعماقهم. وراحوا يستغلونها كعنوان لموضوعاتهم المقبلة في الدفاع عن الشرف.

ووعيًا بالدور الذي يقومون به. فإنّ الكتاب الجزائريين باللغة الفرنسية قد فهموا أنّ الزمن الآن ليس زمن الكتابة عن العادات والتقاليد وما شابه ذلك، وإنما حان الوقت للكتابة عن الكفاح و المعركة المصيرية. والدفاع عن الذات والشرف. (Litteratures de lutte et de combat) من هذه الزاوية. انطلق الكتاب في أعمالهم مصورين الواقع الاجتماعي المزري الذي لا يطاق. منددين بالحياة تحت نير الاستعمار الفرنسي الغاشم الذي لا يحترم صغيرًا. ولا يرحم كبيرًا. ولا يفرّق بين رجل وامرأة. ويهدم كل ما يراه منافيًا لصليبه. فتعالت صيحات الكتّاب في هذا الاتجاه المعاكس، محاولة منها الحفاظ على عادات وتقاليد الآباء والأجداد. وكل ما هو فلكلور باعتباره الوعاء الحافظ لكل هذه الأمور العريقة. ومنددين بالمثاقفة السلبية التي لا تعترف بشخصيتهم كجزائريين لهم حق الأرض. وحق الهوية.

ومن هنا. بدأ الوعي ينمو ويكبر مع مرور الزمن وتعاقب الأحداث السياسية والاجتماعية. وبدأ الأمر يتضح أكثر فأكثر. إلى أن دفع بالكاتب الجزائري. باعتباره الناطق الرسمي على لسان شعبه. إلى التفكير فيما اعتوره من عائق. والتدبر في المخرج. ولاحظ أنه محكوم بثلاثة أمور:

أولها: إنّ ممثل النظام الاستدماري الفرنسي هو واضح في حقيقته كنظام استدماري مهين.

ثانيها: إن ساعة المحاسبة والتقييم قد بدأت: غير أن مشاكل كثيرة قد نجمت عن ذلك وأهمها: العنصرية. والمنفى الجماعي والفردي. والمثاقفة السلبية. والنظام الاجتماعي الاقتصادي المتدهور ...الخ.

ثالثها: إنّ هذه النتيجة قد أثقلت كاهل الكاتب الجزائري. ودفعت به رويدًا رويدًا إلى استرجاع وعيه. والأخذ بزمام السلاح كأساس للتحرر.

ويلاحظ من خلال هذا العرض السريع لتراكم الأحداث وتفعيلها في الوسط الاجتماعي الجزائري. أنه توقف صوت الكتاب الجزائريين. وأفل إلى الأبد تاركًا وراءه صراخًا عنيفًا في حجم عنف الثورة المسلحة التي احتضنها الشعب الجزائري كله.

وهنا تكبر مهمة الكاتب الجزائري. ويكبر دوره في تصوير الآلام والأوجاع وحالات الفقر التي لا يطيقها أحد، ومن ثم نقلها إلى العالم الخارجي، وكان المتلقي الأول و الأساس لهذه الكتابات باللغة الفرنسية هو بالضرورة المواطن الفرنسي. لتطابق لغته الأصلية بلغة الكتابة الأدبية. ولأنّ الأمية كانت ضاربة أطنابها في المجتمع الجزائري آنذاك.

فاللغة الفرنسية: وهي لغة الكتابة لدى معظم الكتاب الجزائريين. كانت تعتبر المتنفس الوحيد لهم، وكانوا يستعملونها لأغراض شتى، حسب ما تقتضيه الحاجة، سواء أكانت هذه الأغراض نفسية أم اجتماعية أم أدبية أم اقتصادية أم للشهرة والتفاخر.

وفي أواخر الحرب العالمية الثانية، بدأت بعض الأسماء تخرج إلى الظهور وتبين عن أنيابها، محاولة كشف الحقيقة من منظورها الخاص، نذكر منها، مراعين في ذلك، التسلسل الزمني لهذه الروايات:

1942: Zehar Aissa : "Hind a l'ame pure ou l'histoire d'une mere".
1945:Zenati R.et A.:"Bou el Nouar, le heune Algerien"
1947: Amrouche Marie-Louise:"Jacinte Noire"
Debeche Djamila:" Leila Jeun Fille Algerienne"
1948: Bennabi Malek: "Lebbik, Pelerinage des Pauvre"
1950:Feraoum Mouloud: " Le File du Pauvre"
1952: Dib Mohamed: " La Grande Oubliee"
1954: Dib Mohamed: "L'Incendie"
1955: Mammeri Mouloud:" Le Sommeil du Jiste"
Debeche Djamila:" Aziza"
1956: Kateb Yacine: "Nedjma"
Ouary Malek:" Le Grain dans la meule"
1957:Dib Mohamed :"Le mÉtier a tisser"
Feraoum Mouloud: Les Chemins qui montent"
Djebar Assia:" La Soif"
1962: Bourboune Mourad: "Lw mont des Genets"
Djebar Assia:"Les Enfants du nouveau monde"
Dib Mohamed:" Qui se souvient de la mer"

إشكالية الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية:

إنّ من بين إشكاليات الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية التي يمكن الوقوف عندها: هي تساؤلنا عن مجموعة من الأمور أهمها:

- اللغة المستعملة في الكتابة.
- الحقائق التي يحملها هذا الأدب.
- الهدف أو الغاية من الكتابة.
- الالتزام في الأدب أو أدب الالتزام.

إنّ اللغة المستعملة في الكتابة هنا هي اللغة الفرنسية، ولكننا لسنا مطالبين بدراسة اللغة من جانبها الثقافي الأيديولوجي، لأنّ الحديث عن هذا العنصر يكون من جانب آخر من البحث، وإنما ندرس هذه اللغة من حيث هي لغة عارية من مضمونها.

ومن خلال هذا الشرط المفترض، يمكننا أن نحكم على الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية على أنه أدب يوضع في خانة الأدب الفرنسي العام، وذلك عملاً بمقولة النبي(ﷺ) : "من تكلم العربية فهو عربي".

وقياسًا على هذا الاستنتاج، نقول:" من تكلم الفرنسية فهو فرنسي". وبالتالي، فإن جنسية الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية هي بحكم المنطق والقياس، جنسية فرنسية، لا شك فيها.

أما إذا خضنا أغوار هذا الأدب، وتعمقنا فيه قليلاً، نلاحظ أن مضمونه يحمل حقائق المنطقة التي ينتمي إليها الكاتب، فعندما نتصفح رواية " الدار الكبيرة أو البيت الكبير"(La Grande Maison) للكاتب محمد ديب، أو رواية "الطرق الصاعدة" (Les Chemins qui moment) للكاتب مولود فرعون، أو رواية" رقاد العادل".

(Le Sommeil du Huste) للكاتب مولود معمري، أو رواية "نجمة" (Nedjma) للروائي كاتب ياسين، أو غيرها من الروايات، نلاحظ أن خيوطها نُسجت من قماش جزائري الأصل.

إن طريقة سرد الأحداث لدى الكاتب الجزائري تختلف عن طريقة السرد لدى الكاتب الفرنسي مثل: أندري جيد (Andre Gide) أو فكتور هيجو (Victor Hugo)، واختلافهما يكمن في موضوعيهما الرئيس أولاً، أي فيما تطرحانه من إشكالية اجتماعية تخص الإنسان بالدرجة الأولى.

فطموحات المجتمعين الجزائري والفرنسي آنذاك، لا يمكن لها أن تكون متقاربة بحكم عدم توازن الكفتين. أضف إلى ذلك اختلاف الرؤية المستقبلية لكلا الجانبين.

وعلى الرغم من أن البطل في الروايتين الجزائرية، والفرنسية، في تلك الحقبة من الزمن، هو بطل ذو طابع تحرري، فإنّ الغاية من التحرر تختلف أيضًا من جانب إلى آخر. لذلك فإن الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، قبل وبعد الاستقلال بقليل، جاء كله أدبًا تحرريًا، بل أريد به ذلك، لأنّ الأديب كان محكومًا عليه أخلاقيًا، وأيديولوجيًا، واجتماعيًا، أن يكون كذلك، أي ملتزمًا بأوامر الثورة التحررية ومتطلبات الكفاح، فهو أدب التزامي في غالبيته، جاء لمجاهدة العدو بسلاح الكلمة والفكرة، مكمّلاً النقص الذي كان يعتري المجاهد بسلاح البندقية، محدثًا بذلك التوازن بين الجهادين المذكورين.

ولعلنا نخلص بالقول: بأن إشكالية الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية ما كان لها أن تُطرح بهذا القدر من الإلحاح، فطرحها شكلي وسطحي بقدر ما يساوي شكلية وسطحية اللغة المكتوب بها هذا الأدب، باعتبار أنّ هذه اللغة "المستعارة" هي وسيلة للوصول إلى غاية منشودة.

اللغة الفرنسية: وسيلة أم غاية؟

تعتبر اللغة عنصرًا مهمًا من عناصر التواصل والتفاهم بين الأمم والشعوب، فهي سلاح ذو حدين: سلاح للبناء، وسلاح للهدم.

أما سلاح البناء: فيتمثل في كون هذه اللغة جزءًا لا يتجزأ من عملية التحرر والكفاح، وأما سلاح الهدم: فعندما تكون اللغة وسيلة لغزو الآخر واستدماره.

فماذا عن الأديب الجزائري وتجربته مع اللغة الفرنسية؟

أ - مأساة لغوية:

في الوقت الذي اتخذ الكاتب الجزائري اللغة الفرنسية وسيلة للتخاطب ونقل أفكاره ومشاعره إلى الآخر (المحتل بالدرجة الأولى)، أصبح يعيش نوعًا من المأساة النفسية والاجتماعية بسبب التمزق الذي أحدثته هذه اللغة "المحتلة" في نفس الكاتب، وقد ازداد هذا التمزق حدّة، خاصة عندما أحسّ الكاتب الجزائري أنه صار يبتعد أكثر فأكثر عن مجتمعه الذي يجهل هذه اللغة، ولا يحسن الكلام بها - إلا من دخل المدرسة الفرنسية بطريقة أو بأخرى، وهم قليلون - فاستعمال الكاتب الجزائري لهذه اللغة، مع اللغة الأم، هي بمثابة مشاركته في مملكتين: نفسانية وثقافية.

وبمرور الزمن، تفقد اللغة الأم مكانتها وقيمتها لدى الكاتب، فاتحة المجال لسيطرة وظهور لغة المحتل، إنها مأساة لغوية[٢].

إنّ اختيار اللغة الفرنسية كوسيلة للكتابة، قد زاد الجرح تمزقًا وإيلامًا، لأنّ هذا الاختيار لم يكن عن طواعية، بل جاء مجبرًا بحكم الظروف التي كان يعيشها الكاتب الجزائري آنذاك، مما يدل على أنه كان "جالسًا بين مقعدين"، على حد قول بطل كاتب ياسين[٣]، أو كونه "جالسًا بين لغتين"[٤]، كما قال بطل مراد بوربون.

وعليه، نستطيع القول بأن اللغة الفرنسية من هذه الوجهة، هي لغة فوق المشاعر والأحاسيس لغة غازية، احتمى بها الكاتب الجزائري لأغراض أخرى، حيث استعملها بالطريقة التي أرادها.

ب- غنيمة لغوية:

بعد ما كانت اللغة الفرنسية عنصرًا سالبًا

لدى الكاتب الجزائري في أول الأمر، أصبحت ذلك العنصر الإيجابي المحرك للعواطف والأحاسيس. لأن الكاتب الجزائري قد احتضنها للدفاع عن قضيته العادلة. فهي وسيلة لتثبيت صوت البندقية في الداخل من جهة. ونقل صدى الكفاح إلى الخارج عبر المحافل الدولية من جهة أخرى.

لقد اشتدت الرغبة في استعمال اللغة الفرنسية، حتى صارت ذلك المخبأ الحصين الذي يختبئ بداخله الكاتب الجزائري، مما دفعه إلى التعمق فيها إلى درجة التلاعب بتراكيبها كالعجين، من حيث النحو (Syntaxe) والفونيتيك (Phonetique) والموفولوجيا .....(Morphologie)الخ، أو تضمينها ببعض من "العنف"[٦]. ومن ثم تحويلها حسب متطلباته السياسية للتعبير عن قضايا جزائرية محضة، ولتصوير الواقع الجزائري على حقيقته، منددًا بالمحتل.

إنّ هذه التغييرات التي أحدثها الكاتب الجزائري على مستوى اللغة الفرنسية من خلال الصوت والنبر والمفردات، لدليل قاطع على تمرده، لأنّ التعامل مع اللغة الفرنسية بهذه الطريقة هو بمثابة الكسب الثمين باعتبارها أداة للتحرر، قبل كونها أداة للتواصل مع العالم الآخر. بل هي أداة للمطالبة بالهوية وتأكيد الذات، وخير دليل على هذا، ما ذكره الكاتب مولود معمري في حوار مع الباحث الجزائري عبد الله مازوني: "أرى أنّ اللغة الفرنسية تترجمنا أكثر مما تخوننا"[٧].

وهذا ما يذكرنا به أيضا الروائي كاتب ياسين في إحدى رواياته - والفكرة ذات معنى عميق- مع وصية الأب لابنه، يقول: "إنّ اللغة الفرنسية محتلة. فيجب عليك أن تحتلها"[٨].

الدين والأيديولوجيا في أدب نبيل فارس:

لا يوجد شك إذا قلنا أنّ الاحتلال الفرنسي للجزائر منذ عام ١٨٣٠، يعدّ من أشهر وأقوى أنواع الاحتلال التي عرفها التاريخ على وجه الأرض. من حيث الهيمنة والتضليل من جهة. ومن حيث تبعية المغلوب للغالب في حركاته وسكناته. وفي خصائصه وأساليبه، من جهة أخرى.

ولعلّ أهم قناة محورية كاد الاحتلال الفرنسي، من خلالها، السيطرة على عقول الجزائريين، والتحكم النسبي في مجال تفكيرهم هي اللغة.

تعتبر اللغة عنصرًا من عناصر التواصل والتفاهم بين الشعوب والأمم. فعن طريقها يستطيع الإنسان أن يفهم قرينه الآخر، فيشارك إمّا في بنائه وتقويته وهو ذروة الصلاح، وإمّا في هدمه وتضعيفه وهو ذروة الفساد. ولا يتأتى ذلك إلا إذا توفرت المعادلة على شروط البناء أو الهدم، ومن ثمّ القوة أو الضعف.

لا يختلف في الأمر اثنان، على أنّ فرنسا المستعمرة قد فشلت في سياستها في تركيع الجزائريين على المستوى العسكري لأسباب داخلية وخارجية معروفة. على الرغم من التفاوت الكبير بينهما. إلا أنها قد نجحت في المقابل. في إخضاعهم (وبخاصة المثقفين منهم) على المستوى الثقافي. فالحلقة متكاملة، والهدف واحد. وإن تعدّدت الأشكال والصيغ.

لقد رحلت فرنسا بجيشها وعساكرها. ولكنّها عادت بحلة جديدة يلبسها جزائريون عاشوا في دفء كنفها ورضعوا من ثديها. فكيف يتسنى لهم نسيانها؟! إنهم بعض من كتبوا باللغة الفرنسية. وأخصّ منهم بالذكر الروائي الجزائري نبيل فارس: وهو من مواليد (١٩٤٠) بالقل منطقة القبائل الصغرى.

ينتمي نبيل فارس إلى جيل المثقفين الجزائريين: وهي طبقة نشأت وعايشت فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر. ويعتبر واحدًا من الذين عرفوا تجربة المدرسة الفرنسية. حيث عاشها قلبًا وقلمًا. فلا غرو. إذ كانت أغلب كتاباته ورواياته تصبّ في نهر الثورة التحريرية. باعتبارها المحور العام للإبداع الأدبي آنذاك.

انتقل الكاتب إلى فرنسا وهناك. التحق بصفوف جبهة التحرير الوطني. فطفق يكتب عن آلامه وآماله وأحلامه. عن حرب التحرير. عن اغتصاب فرنسا لحقوق الجزائريين مثله. عن تمزّق شعبه وعذابه. عن المنفى الذي أجبر عددًا كبيرًا من بني وطنه على الرحيل إلى مواطن أخرى. وأخيرًا عن المطالبة بهويته.

اختار الكاتب مهنة التدريس في إحدى جامعات فرنسا. وله عدّة مؤلفات منها:

1 – Yahia pas de chance. Paris: Le Seuil. 1970

2 – Le Chant d'Akli; Honfleur. P.j. Oswald. 1971

3 – Un passager de l'Occident. Paris. Le Seuil. 1971

4 – Le champ des oliviers. Paris. Le seuil. 1972

5 – Mémoire de l'absent. Paris. Le seuil. 1974

6 – L'exil et le désarroi. Paris. Maspero. 1976

7 – La mort de Salah bey. Paris. L'harmattan. 1980.

إن المتمعن في مضامين بعض روايات هذا الكاتب. يقف عند نقطة هامة تميّز بها تتمثل في كون هذه الروايات جاءت مطبوعة بطابع التمرد والردة: تمرد على الواقع الاثنولوجي. بمعنى أن هناك رفضًا للانتماء إلى الحضارة العربية. وما تحمله من دلالات الكسل والغباء- في رأي الكاتب- مما يعطيه دفعاً شعورياً قوياً للمطالبة بهويته البربرية.

وردّة بمعنى أنّ هناك رفضاً للإنتماء إلى الحضارة الإسلامية. وما تحمله من دلالات التخلف واللاعقلانية- في نظر الكاتب أيضًا.

لقد كان نبيل فارس واضحًا وجليًا فيما أراد أن يقوله أو ينطق به في بعض رواياته. خصوصًا في روايته: "Un passager de l'Occident" و "Le Champ des Oliviers".

يقول في رواية "عابر من الغرب" في شبه جزيرة ولدتُ. محفوفة بالماء. في القبائل الصغرى بالقل.

«Dans une presqu'île je suis ne. entourée d'eau. en petite Kabylie. a Collo»(1)

ليس من باب الصدفة أن نرى ظرف المكان (في شبه جزيرة) قد استعمل في بداية الجملة. فمن خلال هذه الصيغة. يبدو كأن الكاتب يريد أن يؤكد على اختلاف شخصيته عن شخصية العربي. وبالتالي تنافر الطباع بينهما.

إنّ جملة (محفوفة بالماء) قصد بها الكاتب تعميق الهوة بين ما هو عربي وما هو بربري. وهي صيغة لها دلالات انتمائية جغرافية. وكأن الكاتب أراد بها أن يفصل جغرافيته (البربرية) عن باقي الجغرافيات الأخرى. والتي يرى من خلالها حماية له من غزو أجنبي ألا وهو (العنصر العربي).

لقد تشبّع الكاتب بسياسة فرنسا الاستعمارية القائمة على مبدأ "فرّق تسد". كما نجده شديد التمسك بجذور فلسفتها العنصرية المبنية على محور اجتماعي وإيديولوجي خاص ممثلاً في ظاهرة "الأسطورة القبائلية"(٢). القائمة على أساس من التفرقة بين الأجناس والأعراق. والتي تقول بأن العنصر القبائلي أو البربري هو أقوى وأضخم جسمًا. وأحسن وأجدى عملاً. وأبهى وأجمل خلقة من العنصر العربي في جميع المجالات. وفي شتى

الميادين. وبالتالي فإنّ غلبة وسيطرة العنصر القبائلي على العنصر العربي هو من الضرورة بمكان في نظر هذه الفلسفة الفرنسية الاستعمارية.

وما هذا الوصف الدقيق الذي قيل على لسان هذه النظرية العنصرية، إلا دليلاً قاطعًا على وجهة نظر الكاتب المزعومة :

Les arbres sont paresseux, mous, lents en dedans, rêveurs, froids et presque tristes, fanatiques. Le Berbère est un .pre travailleur, il est en dehors, énergique expansif, vif et gai (...) il est économe probe, curieux, au fond peu religieux... les Kabyles seraient l'élément colonisateur par excellence que nous devrions employer pour faire de lÍAlgérie une véritable France:" (3)

فمن خلال هذه الفقرة، نلاحظ أن الكاتب نبيل فارس كان شديد الحرص على استعمال هذه النظرية حرفيًا وتنفيذها بدقّة على أرض الواقع الجزائري، وعندما نقرأ أيضًا:

«si vous dites, au-delà de la presqu'île, a l'Algérien que vous rencontrez: "je suis Kabyle", que croyez-vous qu'il vous répondra? ... il vous dira: "c'est faux, tu es Algérien avant d'être Kabyle"»

إن هذه العبارات تدلّ بوضوح على أن ليس بمقدور الكاتب تقبل مثل هذه الفكرة، لأنها جاءت عامة أي (الجزائر) في حين لا بدّ أن تأتي في نظر الكاتب خاصة أي (القبائل): لأنّ الانتماء الاثنولوجي (L'appartenance ethnique) يأتي أولاً وقبل الانتماء الجغرافي (L'appartenance geographique)، بحكم أنّ الجزائر، في رأيه تشكلت بعد القبائل. ومن هنا يرجع الكاتب أولوية السبق لمنطقته.

ثم يذهب الكاتب بعيدًا في فكرته، حيث أنّ مدلولها لا يقف فقط عند حدّ الجنس البشري والجغرافي، بل تعداهما إلى العنصر الإيديولوجي والديني، واصفًا العرب الفاتحين بأنهم غزاة، وقد جنوا على منطقته الغابرة في التاريخ. يقول على حد تعبيره:

«Trompés par l'arrivée récente (je dis récente pour moi. Car ces cavaliers venus vers le VII éme. Puis vers le IX éme. Puis (enfin) vers le XI éme siécle. Ne peuvent être d'une origine antérieure a la mienne) de quelques cavaliers venus de ces quelconques dunes d'un quelconque pays désertique ou existe une pierre noire quelconque (...)»(1)

إنّ الكاتب قد انخدع بمجيء هؤلاء الفرسان والخيّالة منذ القرن السابع إلى القرن الحادي عشر. وهو مجيء يعتبر في نظر الكاتب حديثًا، ويكون بهذا قد رسم الخط الفاصل بين جذوره العميقة في التاريخ، وبين هذا "الغزو" العربي القادم من أدغال الصحراء، من بلد يوجد فيه "حجر أسود"[١٠٢].

إنه تهجم واضح وصريح على معالم ديننا الإسلامي الحنيف المتمثل في الحجر الأسود، وهي إشارة مقصودة أراد بها الكاتب ضربًا في العمق، واستئصالاً لكل ما هو إسلامي.

إنّ حديث الكاتب الذي جاء بين قوسين، والقاطع للفكرة العامة، ينمّ حقيقة عن هذه الآهات التي تخالج نفسه وتقطع أمعاءه. فالربط بينها عسير وصعب: لأنّ الكاتب في الحقيقة يرفض هذه الصلة، ويرفض أيضا هذا التسلسل التاريخي. غير أنه، على الرغم من ذلك، لا يملك القدرة والقوة اللازمة لردع هذا الأمر ودفعه خارج الحدود الزمانية.

لذلك، نراه قد رضي عنوة وكرهًا بهذا الجديد الآتي، إنه يحس بضعف شديد أمام قوة الإسلام وتسامحه في الوقت نفسه، ثم إنّه لم يجد بدًا من أن يشفي غليله وكرهه وبغضاءه سوى الازدراء بما أنزل الله من أحكام وتعاليم دينية.

وبعد ما تهجّم على الحجر الأسود، نجده يصبّ تهكمه أيضًا على الكتاب المقدس، معتبرًا إياه

كتابًا نكرة صدر عن دار نشر اسمها الصحراء، ويقول بعبارات حادة:

.[10] Lelivre (un libre) paru aux Exditions du Desert

نلاحظ في هذه العبارة أنّ الانتقال من صيغة المعرفة إلى صيغة النكرة له أكثر من دلالة في نظر الكاتب، حيث اعتبر المصحف الكريم كأي كتاب من الكتب الأخرى التي نقرؤها، وربما لا نفهم محتواها ، ثم نضعها جانبًا غداء للغبار.

إنّ الكاتب، في هذه الفقرة، يريد عن قصد وإدراك أن يقلص ويقلل من قيمة ومكانة الكتاب المقدس، رمز النبوّة المحمدية ومنبع البلاغة العربية وإعجازها البياني.

فهو إذ أراد أن يشوه القرآن الكريم في أذهان الآخرين، إنما أراد أن يضرب لغة هذا القرآن، ويبعث الشكوك فيمن بعثه الله رحمة للعالمين، نبي الله محمد (ﷺ) واصفًا إياه بأنه تاجر دجّال، يقول:

«Je dis imposture. Car l'imposture prophétique se transforma en en imposture mercantile. Puis par la suite en imposture culturelle»[11]

فبعد إثارة الشكوك، واختلاق الأكاذيب، ونشر الأوصاف والأقوال المغرضة تجاه المصحف الكريم وفي حق رسول الله (ﷺ)، ينتقل إلى الحديث عن إسلامية الجزائر، معتبرًا الأمر مجرّد حدث تاريخي ليس إلا بعيدًا عن قضاء الله وقدره ثم أنّ هذا الوصف لم يعد يريحه كثيرًا نتيجة البغضاء التي تسكن قلبه، بل ذهب إلى إعلان صرخته وتكهّنه برحيل هذا الدين الحنيف من أرض الجزائر، باعتباره غاصبًا لها مثله مثل الاستعمار الفرنسي الغاشم، يقول:

«L'islamisation de l'Algérie n'est pas un phénomene divin mais, comme tout phénoméne, historique». «Aprés la décolonisation française de l'Algérie viendra la colonisation islamique de l'Algérie»[12].

فكلا الحدثين عبارة عن عملية تصفية: الأولى تصفية للاستعمار الفرنسي، والثانية تصفية للدين الإسلامي، وخلاصة القول، فإنّ الكاتب نبيل فارس قد تأثر أيّما تأثر بالثقافة الفرنسية وفلسفتها الملحدة المبنية على الشك في كل شيء، في الإنسان، في الأنبياء والرسل، في الكتب المقدسة، وحتى في الله عز وجلّ.

وهذه نتيجة لا حتمية، ارتضاها نبيل فارس وطبقها على نفسه أولاً، ثم بعد ذلك على الوطن والدين ثانيًا، وكان من الضروري على كاتبنا أن يدعم بفكره وقلمه قضية العروبة والإسلام، ولا يترك لنفسه الانغماس في بحر اللائكية اللعينة، لأنّ الشمس لا يمكنها أن تسطع إلا من الشرق. ■

•••

الحواشي

1. Les Littératures Francophones 1945. Bordas. Paris. 1986. p:175.
2. Lacheral Mustapha: L'Algérie: Nation et société. Maspero. Paros. 1965. P:313.
3. Memmi Albert: Portrait du Colonise. Ed Gallimard. Paris. 1985. p:126.
4. Kateb Yacine: Le Polygone étoile.
5. Bourboune Mourad: Le Muezzin. P.313.
6. Dejeu Jean: La Littérature algérienne contemporaine. Que Sais-je?. p.u.f.
7. 1975. p:123
8. -Kateb Yacine: Le Polygone étoile. p: 180
9. Dejeu Jean. op-cit. p: 122.
10. L'etat perdu. Le Paradou. Hubert Nyssen. Actes du Sud. 1982.
11. Albert MEMMI. Ecrivains francophones du Maghreb. (Anthologie)(p:134) بتصرف.
12. Nabil FARES: Un passager de l'Occident (p:31)
13. «Le Mythe Kabyle»
14. C.R.AGERON: Les Algériens musulmans et la France. (p. 276)
15. Un Passager de l'Occident. (p: 32)

١٦. حقل الزيتون (الراوية) (ص: ٨٦).

١٧. الحجر الأسود بمكة المكرمة. والمقصود به الكعبة والإسلام بصفة عامة.

١٨. حقل الزيتون (الرواية). (ص:٨٦).

١٩. المصدر نفسه (ص:٩٤).

٢٠. عابر من الغرب (الرواية) (ص:٧٥).

أ) المصادر

1) Nabil FARES: Un passager de l'Occident.(p:31).

2) Paris, Le Seuil, 1971

Nabil FARES: Le champ des oliviers. Paris. Le seuil. 1972.

ب) المراجع

1) Albert MEMMI: Ecrivains francophones du Maghreb, Ed. Seghers, Paris, 1985.

2) Charles Robert AGERON: Les Algériens musulmans et la France (1871 - 1919). P.U.F. Paris, 1968. T.1.

3) Guy DANINOS: Les Nouvelles tendances du Roman Algérien de langue française. Ed. Naaman. Sherbrooke, Québec., CANADA. 1979